

هل كان ابن تيمية به مسئلاً من جنون؟

Did Ibn Taymiyya Have a Screw Loose?

تأليف: دونالد ب. لتل | Donald P. Little^(١)

ترجمة: أحمد محمود إبراهيم | Ahmed Mahmoud Ibrahim^(٢)

(١) دونالد ب. لتل (Donald P. Little) (١٩٣٢-٢٠١٧م): مستشرق أمريكي معاصر، ارتبط اسمه بمعهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجيل (McGill University) (كندا)، مشغلاً بتدريس التاريخ الإسلامي واللغة العربية. من أشهر أعماله: (An Introduction to Mamluk Historiography).

(٢) د. أحمد محمود إبراهيم: مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة بكلية دار العلوم جامعة القاهرة. من أعماله المنشورة: "تأسيس الإسلام الموازي: التصوف الشعبي في الأناضول"، ومن ترجماته عن الإنجليزية: "النشأة الثانية للفقهاء الإسلامي: المذهب الحنفي في فجر الدولة العثمانية الحديثة، لجاي يوراك".
الإيميل: ahmed1977historian@gmail.com

تتخذ هذه الدراسة المعقودة لتحليل شخصية ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٨م) من الحُكم الذي قرره ابنُ بطوطة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م تقريبًا) بشأنه، وهو أنه كان يفتقر إلى الاتزان العقلي= مُنْطَلَقًا لها. ولئن كانت تتغيًا في الأساس تقييم هذا الحُكم، فإن لها هدفًا آخر يتمثل في بيان ما إذا كانت شخصية ابن تيمية قد أثرت على سيرته، وكيف أثرت، وعلى وجه الخصوص تحديد ما إذا كان التحيزُ العاطفي الذي أثاره سواءً أكان لصالحه أم ضده يمكن أن يُغزى بدرجة كبيرةً إلى سلوكه. على أننا سنضرب صَفْحًا هنا عن مناقشة مسألةٍ أخرى لا تقل في أهميتها عن سابقتها إن لم تكن أهمَّ منها، ألا وهي مقدارُ الأثر الذي تركته شخصية ابن تيمية على كتاباته؛ لأن الترتيب الزمني لمؤلفاته التي تَنَدُّ عن الحصر، والتي لا يزال أكثرها مخطوطًا، لم يُدرَس بعدُ درسًا وافيًا. وثمة سؤالٌ آخر يرد ضمناً في تضاعيف هذه الدراسة، وهو: هل المعلومات التي تتيحها لنا المصادرُ الإسلاميةُ الوسيطةُ تكفي للوفاء بمقاصد التحليل النفسي الجاد [لشخصية ابن تيمية]؟

ومما يَدُلُّنا على أن العبارة التي أطلقها ابنُ بطوطة يَصِفُ بها السلامةَ العقليةَ لابن تيمية ليست أمرًا هيئًا يمكن إغفالُهُ تلك المقالة التي نشرها بأخرة البروفيسور جورج مقدسي (George Makdisi). وذهب فيها إلى أن هذه العبارة نفسها كانت من الأسباب الأساسية وراء الرأي العلمي السائد والقائل بأن ابن تيمية والمدرسة الحنبلية كانا «يقعان خارج التيار الأساسي للفكر الإسلامي»، وأن هذه الصورة التي رُسمت للشيخ، فضيقُ المستشرقون يردونها في غير زويّة أو تمحيص، «أفضت إلى تشويش نظرنا إلى التاريخ الديني الإسلامي»^(٣).

(3) "Ibn Taymiya: A Šūfi of the Qādiriya Order", American Journal of Arabic Studies, I (1973), 119.

المصادر، ثمة مسألة أخرى تتعلّق أيضًا بطبيعة هذه المصادر؛ ذلك أنه على الرغم من أن كثيرًا من المؤلّفين هاجموا معتقدات ابن تيمية، فإننا لا نكاد نقف على أحد انتقد شخصه. ويرجع السبب في ذلك جزئيًا إلى ما تصادف من أن من ترجموا له كانوا جميعًا من أنصاره في الغالب، سواء بوصفهم حنابلة؛ كابن عبد الهادي (ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣-١٣٤٤م)، وابن رجب (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م-١٣٩٢-١٣٩٣م)، أم بوصفهم من المنتمين إلى من اصطلاح البروفيسور هنري لاووست (Henri Laoust) على تسميتهم بـ«**الحنابلة الشوافع**» أو «**الشافعية المؤيدين للمذهب الحنبلي**»: كالذهبي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٩م)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)^(٦)، على الرغم من أن الذهبي، كما سنرى، يمثّل حالة خاصة. ولذلك فإن أكثر ما كُتب عن ابن تيمية يندرج ضمن السّير التقديسية التي تحتفي بالمناقب، على نحو ما يُشير إليه عنوانُ أكمل المصادر المعاصرة التي ترجمت لابن تيمية، وهو كتاب «**العُقود الدرّية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**» لابن عبد الهادي^(٧). بيد أنه يسعنا الوقوف في هذا الحشد من الأخبار، التي مال بها الهوى، على بعض الأدلة التي يمكن من خلالها تمحيص الحُكم الذي أطلقه ابن بطوطة، وإنّ لزماننا أولًا تمحيص شهادته تمحيصًا دقيقًا، ثم مقارنتها بعد ذلك بغيرها من الأحكام التي أُظليقت على

والحق أن مقدسي لم يحفل بمسألة ما إذا كان رأي ابن بطوطة له ما يسوّغه أم لا، إلا على نحو غير مباشر. وذلك حين أشار إليه بوصفه «واحدًا من منتقدي ابن تيمية في العصور الوسطى»^(٤).

غير أنه إذا كان ينبغي الفصل في هذه التهمة؛ ابتغاء إقامة فهمنا لابن تيمية على أساس تاريخي متين، فمن الضروري فيما يبدو أن نستعرض الأدلة المتاحة التي تُثبت هذه التهمة أو تنفيها. ولكن ما أيسر الدعوة إلى ذلك، وما أشقّ الوفاء بها؛ ذلك أننا حتى لو غضضنا الطّرف مؤقتًا عن المعلومات الأساسية التي تبيحها لنا كتابات ابن تيمية، فسوف نصادف قدرًا هائلًا من الأخبار التي أوردتها عنه الحوليات، والمصنّفات التي أُفردت للحديث عنه، وكتب التراجم، على نحو يفوق في الغالب ما ورد من أخبار عن أي مسلم آخر ينتمي إلى العصور الوسطى، جملة وتفصيلًا، ما خلا محمدًا ﷺ نفسه بطبيعة الحال^(٥).

وبالإضافة إلى الصعوبة التي يثيرها حجم

(4) Ibid., p. 118.

ويُنكر هنري لاووست (Henri Laoust) أيضًا، في دراسته (Essai sur les doctrines sociales et politiques de Takī-d-Dīn Aḥmad b. Taymīya, Cairo, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1939, p. 481). رأي ابن بطوطة؛ لأنه «صدر عن مراقب ذي هوى، وحالة يملؤه الزهو، ومتكلم مشوش المعرفة، و[فقيه] مالكي متعصب». وراجع أيضًا (pp. ٤٨٠-٨٣) من دراسة لاووست المذكورة.

(٥) راجع للمؤلف نفسه:

"The Historical and Historiographical Significance of the Detention of Ibn Taymiyya", International Journal of Middle East Studies, IV (1973), 313-20.

[وقد ترجمت هذه الدراسة إلى العربية بعنوان: "اعتقال ابن تيمية ودلالته في التاريخ والتأريخ"، وهي منشورة على موقع نهوض بتاريخ ٢٠١٩م. (المترجم)].

(6) "Le Hanbalism sous les mamlouks bahrides", Revue des Études Islamiques, XXVIII (1960), 58.

(٧) تحقيق: محمد حامد الفقي، القاهرة: مطبعة حجازي، ١٩٣٨م.

ووضعها بين يدي قاضي القضاة، وقال قاضي القضاة لابن تيمية: ما تقول؟ قال: لا إله إلا الله، فأعاد عليه، فأجاب عليه بمثل قوله. فأمر الملك الناصر بسجنه، فسُجِنَ أعوامًا، وصُفِّ في السجن كتابًا في تفسير القرآن سماه «البحر المحيط»، في نحو أربعين مجلدًا. ثم إن أمه تعرّضت للملك الناصر، وشكّت إليه، فأمر بإطلاقه، إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية، وكنتُ إذ ذاك بدمشق، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويُذّرههم؛ فكان من جُملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجةً من دَرَج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يُعرَف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والتّعال ضربًا كثيرًا، حتى سقطت عمامته، وظهر على رأسه شاشيةً حريز، فأنكروا عليه لباسها، واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضي الحنابلة، فأمر بسجنه وعزّره بعد ذلك. فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز، وكان من خيار الأمراء وُصلحائهم، فكتب إلى الملك الناصر بذلك، وكتب عقدًا شرعيًّا على ابن تيمية بأمر منكرة، منها أن المُطلَّق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه إلا طلاقًا واحدة، ومنها المسافرُ

شخصية ابن تيمية. كي نخلص من ذلك إلى بعض النتائج التي نستقلُّ بها.

وأما الفقرة ذات الصلة بموضوعنا فتدرد في «رحلة ابن بطوطة» حين شرع في وصف زيارته لدمشق سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٦م؛ فقد افتتح وصفه للمدينة. جريًا على مألوف عاداته، بذكر انطباعات ابن جُنَيْدٍ (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) عنها، وهو الرحالة الذي سبقه زمنيًا، ثم انتقل إلى وصف الأثر الإسلامي الرئيس في دمشق، وهو الجامع الأموي، معوّلًا في ذلك أيضًا على ابن جبير بدرجة كبيرة، ثم أخذ في ذكر المدرّسين والمعلّمين به، وقضاة القضاة الأربعة في المدينة، ثم شفع ذلك بفضلي عَنَوْنَهُ بـ«حكاية» تكلم فيه عن ابن تيمية. وقد ترجمت هذه الحكاية بتمامها؛ لاعتقادي أن استعراض حكم ابن بطوطة في سياقه الكامل الذي أورده فيه هو أمرٌ من الأهمية بمكان:

«وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقيُّ الدين ابن تيمية كبيرُ الشام، يتكلم في الفنون، إلا أنَّ في عقله شيئًا. وكان أهلُ دمشق يعظّمونه أشدَّ التعظيم، ويعيظهم على المنبر. وتكلم مرةً بأمر أنكره الفقهاء ورفعوه إلى الملك الناصر، فأمر بإشخاصه إلى القاهرة، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلم شرفُ الدين الزواوي المالكي وقال: إن هذا الرجل قال كذا وكذا، وعدد ما أنكر على ابن تيمية، وأحضر العقود بذلك

الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف، زاده الله طيباً، لا يَقْصُر الصلاة، وسوى ذلك ما يشبهه. وبعث العقد إلى الملك الناصر، فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة، فسُجِنَ بها حتى مات في السجن»^(٨).

وتتمثل القضية الأساسية التي تثيرها هذه الحكاية فيما إذا كان ابن بطوطة قد رأى ابن تيمية وراقبه حقاً، أم أنه عوّل فيما أورده على مرويات بعض شهود العيان، وعلى خياله في أكبر الظن؟ والحق أن التسلسل الزمني الذي يورده ابن بطوطة يدحض الوقائع التي يذكرها، على نحو ما جرت به عادته في كثير من الأحيان؛ ذلك أنه إذا لم يكن قد وصل إلى دمشق- تَبَعًا لروايته هو- حتى التاسع من رمضان سنة ٧٢٦هـ (التاسع من أغسطس سنة ١٣٢٦م)، فقد استحال أن يرى ابن تيمية وهو يعظ في الجامع الأموي؛ لأن الأخير كان مسجوناً آنذاك، ولبث في السجن شهراً، استناداً إلى بعض

المصادر المستقلة^(٩).

وفضلاً عما تقدّم، يبدو من المستغرب أن تخلو المصادر الأخرى مما عسى أن يوثق إشارة ابن بطوطة إلى مثل هذه الحادثة، وهي المصادر التي تؤكّد، خلافاً لما قرره ابن بطوطة، أن السبب في سجن ابن تيمية في هذه المناسبة كان موقفه من مسألة زيارة القبور^(١٠)، التي لا تعدو أن تكون في رواية ابن بطوطة مسألة ثانوية. وتَبَعًا لهذه المصادر نفسها، كانت آراء ابن تيمية في مسألة صفات الله، ومنها صفة النزول، هي السبب فيما تعرّض له من مشكلات في طور أسبق من حياته^(١١).

(9) J Gibb, *The Travels of Ibn Battūta*, I, 135, note 251.

ويذكر ابن عبد الهادي في "العقود الدرية"، ص ٣٢٥، تاريخاً [آخر] هو السادس من شعبان (الثامن من يوليو)، ويذكر ابن كثير في "البدية والنهاية"، (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٣٩م، ١٢٣/٤) تاريخاً [ثالثاً] هو السادس عشر من شعبان (الثامن عشر من يوليو). وانظر أيضاً: Ivan Hrbek, "The Chronology of Ibn Battūta's Travels", (*Archiv Orientální*, XXX (١٩٦٢)، ٤٢٥)؛ حيث أُكِّد أن ابن بطوطة لا يمكن أن يكون قد رأى ابن تيمية في دمشق، وأنه ربما سمع "الحكاية" التي سردها في رحلته من بعض المصادر في مكة. ويخلص إيفان هريك (Ivan Hrbek) من ذلك إلى أن ابن بطوطة "يروى ما يسمعه من أحداث كأنه رآها رأي العين، وهو ما يترتب عليه أنه لا يمكن الوثوق بما يذكره في مناسبات مماثلة".

(١٠) انظر على سبيل المثال: ابن عبد الهادي، *العقود الدرية*، ص ٣٢٧-٣٦٠؛ ابن كثير، *البدية والنهاية* ١٢٣/٤-١٢٤؛ صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، *أعيان العصر وأعيان النصر*، عاطف أفندي مخطوط ١٨٠٩م، ورقة ٣٤؛ ابن حجر العسقلاني، *الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦م، ٥٩/١؛ وانظر أيضاً: Laoušt, Essai, pp. 145-47; Hasan Q. Murād, "Miḥan of Ibn Taymiya: A Narrative Account Based on a Comparative Analysis of Sources", unpublished M. A. thesis, McGill University, 1968, pp. 107-109.

(١١) ابن عبد الهادي، *العقود الدرية*، ص ١٩٨-٢٣٢؛ ابن كثير، *البدية والنهاية* ٣٨/٤، الصفدي، *أعيان العصر*، ورقة ٣٤؛ وانظر أيضاً: Laoušt, Essai, pp. 132-33; Murād, "Miḥan", pp. 77-78, 84-92.

(8) *Voyages*, I, 215-18; cf. the translations of Gibb, *Ibn Battuta, Travels in Asia and Africa, 1325-1354*, London (Routledge & Kegan Paul Ltd) 1929, pp. 67-68, and *The Travels of Ibn Battūta, A. D. 1325-1354, I*, Cambridge (The University Press) 1958, 135-36.

بطوطة من إدانة ذلك الفقيه المالكي لبسه الحرير يُعزّز موثوقية روايته. صفة القول أن هذه الحادثة المتعلقة بالنزول درجة عن المنبر يُحتمل أنها وقعت أثناء المدة نفسها التي تعرّض فيها ابن تيمية للهجوم بسبب آرائه في زيارة القبور، وهو الهجوم الذي شهده ابن بطوطة، ولكنه أخطأ في تحديد تاريخ زيارته لدمشق فأخّره شهراً، وذلك حين أملى مذكراته بعد ذلك بسنوات.

ومهما يكن من أمر، فحتى لو لم يكن ابن بطوطة قد رأى ابن تيمية رأي العين، فإن المعلومات التفصيلية التي ضمنتها تلك الحكاية تدلنا في وضوح على أنه سمع أو طالع مرويات تعرض لأنشطة ابن تيمية، فاقتنع بأنه على الرغم مما كان عليه الشيخ من غزارة العلم، وما حظي به من المكانة والشعبية في دمشق، فقد بدا غريب الأطوار إلى حد ما فيما كان يؤمن به من معتقدات وما يصدر عنه من ألوان السلوك. والحق أن الانطباع الذي تركته حكاية ابن بطوطة بوجه عام هو أن رجلاً في كامل قواه العقلية ما كان له أن يُباهي في ملأ من الناس وعلى هذا النحو السافر بأرائه في التجسيم، وما كان له أن يرفض التعاون مع السلطات إذا اعتُقل أو خضع للتحقيق. ومن المؤكد أنه ما كان ليكرر ذنباً لبث بسببه في السجن مدةً من الزمان. ولكن من الواضح أن هذه المسألة تتعلّق برأي ابن بطوطة الشخصي، وأن المادة نفسها ربما تُفسّر لإثبات أن ابن تيمية كان بطلاً، يتحدّى الدولة

والواقع أن ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) يروي أن الحادثة التي نزل فيها ابن تيمية درجةً من درجات المنبر لكي يوضح فهمه للنزول وقعت مبكراً، في سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م^(١٢). ولما كان المصدر الذي اعتمد عليه ابن حجر في هذه الحادثة شخصاً معاصراً لابن تيمية، فأكبر الظن أن ابن بطوطة نقل عنه هذه الرواية، وزعم أنه شهد الحادثة المذكورة بنفسه؛ كي يزيد التأثير الدرامي للحكاية التي أوردتها.

وثمة فروق أخرى كذلك؛ منها على سبيل المثال: أنه ليس ثمة مصدر آخر يزعم أن أم ابن تيمية توسّطت لدى السلطان لإطلاق سراح ابنها من السجن، على الرغم من أن ابن عبد الهادي يورد خطاباً كتبه ابن تيمية إلى أمه وهو مسجون في مصر^(١٣). ومع ذلك، فإن كثيراً من التفاصيل التي ذكرها ابن بطوطة صحيحة؛ فقد كان محمد عز الدين بن مسلم قاضي قضاة الحنابلة في دمشق آنذاك^(١٤)، ومن المعلوم أن الأمير تنكز كان يشغل في ذلك الحين منصب نائب دمشق^(١٥). وأهم من ذلك أن ما ذكره ابن

(١٢) الدرر الكامنة، ١٦٤/١. وكان المصدر الذي استقى منه ابن حجر هذه الحادثة هو نجم الدين سليمان الطوفي الحنبلي (ت ٧١٦هـ/١٣١٦م)، الذي يذكر ليوست أنه أحد تلاميذ ابن تيمية (p. ٤٨٨, Essai, 1 note). وتأسيساً على هذه الإشارة التي يخبر فيها أحد تلاميذ ابن تيمية أن الشيخ نزل درجة من المنبر يبدو من الصعب قبول الخُتم الذي أطلقه ليوست مقرراً فيه أن رواية ابن بطوطة لحادثة مماثلة كانت "افتراءً مثيراً للدهشة" (p. ٤٨١, ibid.).

[قال ابن حجر فيما رواه عن الطوفي: "... فذكروا أنه ذكر حديث النزول، فنزل عن المنبر درجتين، فقال: كنزولي هذا؛ فنسب إلى التجسيم." (المترجم)].

(١٣) العقود الدرية، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(١٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣٦/٤.

(١٥) L. A. Mayer, Saracenic Heraldry, Oxford (Clarendon Press), 1933, p. 219.

اعترف في نهاية المطاف قائلاً: «**ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نُبقِ ممكنًا في السعي فيه، ولما قَدَرَ علينا عَفَا عنا**»^(١٩). بل إن تقي الدين السُّبكي (ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، الذي صنَّف بعض الرسائل في معارضة آراء ابن تيمية في العقائد^(٢٠)، ووصفه لاووست بأنه عدوُّ ابن تيمية [اللدود]^(٢١)، أبدى رضاه عما ذكره الذهبيُّ في تقييم ابن تيمية:

«**قال ابنُ حجر: وكتب الذهبيُّ إلى السبكي يعاتبه بسبب كلامٍ وقع منه في حق ابن تيمية؛ فأجاب، ومن جملة الجواب]: وأما قولُ سيدي في الشيخ تقي الدين، فالمملوك يتحقَّق كبيرٌ قدره، وزخارةٌ بحره، وتوسَّعَه في العلوم النقلية والعقلية، وفرطَ ذكائه واجتهاده، وبلوغَه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصفَ، والمملوك يقول ذلك دائماً، وقدرُه في نفسي أكبرُ من ذلك، وأجلُّ ما جمعه اللهُ له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه، لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل من أزمان**»^(٢٢).

وعلى الرغم من أن السبكي قد يُنَّهم بالوقوع في شيءٍ من المبالغة والإطناب

في المناقحة عن آرائه الخاصة؛ ولهذا، فإنه لما كانت روايةُ ابن بطوطة مشكوكًا فيها، ولما كان رأيه موضعَ خلافٍ، فإنه ينبغي علينا أن نلتمس تقييم شخصية ابن تيمية في بعض المصادر الأخرى.

والواقع أن المادة المناقبية التي قُصِدَ بها إلى تبجيل أقوال ابن تيمية وأفعاله تتسم بالوفرة والثراء؛ فمن ذلك مثلاً: أن ابن عبد الهادي يختتم «**عقوده**» بما دَبَّجَه طائفةٌ من معاصري الشيخ، لا يقل عددهم عن ثمانية وعشرين رجلاً، في مديحه وراثته^(٢٣)، وجمع ابنُ ناصر الدين (ت ٨٤٢هـ/١٤٣٨-١٤٣٩م) أقوال خمسة وثمانين عالماً يُقَرُّون فيها بأن ابن تيمية كان جديرًا بهذا اللقب الجليل «**شيخ الإسلام**»^(٢٤). على أن ما ظفر به ابنُ تيمية من ثناء عريض لا يعني بالضرورة أنه لم يكن حقيقًا به، بل إنه من الواضح، خلافًا لذلك، أن المبالغة في مدحه كانت تدل على أنه شخصٌ استثنائيٌّ؛ ولهذا فقد أثار مثل هذا التقدير العام [في المجتمع المملوكي]، وخيرٌ دليل على ذلك اعترافُ خصومه [قبل أتباعه] بأن حياته كانت نموذجًا يُحتذى به؛ فمن ذلك مثلاً: أن ابن مخلوف (ت ٧١٨هـ/١٣١٧م)، قاضي المالكية في مصر، الذي كان مسئولاً إلى حدِّ كبير عن المحاكمات والمَحَن الأولى التي تعرَّض لها ابنُ تيمية في مصر^(٢٥)،

(16) pp. 393-517.

(١٩) الرد الوافر على مَنْ زعم أن مَنْ سَمَّى ابنَ تيمية شيخ الإسلام كافر، في المجموع المشتمل على الدرر الآتية، تحقيق: فرج الله الكردي، القاهرة: مطبعة كردستان العلمية، ١٣٢٩هـ/١٩١١م، ص ٩٩-١٠٠.

(٢٠) انظر الإحالات الواردة في:

Little, "Detention", p. 324, note 7.

(١٩) ابن عبد الهادي، العقود الدرية، ص ٢٨٣.

(٢٠) الدرر المضية في الرد على ابن تيمية، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، دمشق، (القدس)، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨-١٩٢٩م.

(٢١) "Hanbalisme", p. ٥٧.

(٢٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٥٩/١.

تمدح نفسك، وشقاشقك وعبارتك، وتذم العلماء وتتبع عورات الناس^(٢٤)... يا رجل، بالله عليك، كُفَّ عنا؛ فإنك مِخْجَاجٌ عليمُ اللسانِ، لا تَقْرُ ولا تنام. إياكم والأغلوطات في الدّين ... وكثرة الكلام بغير دليل تُقَسِّي القلبَ [ككيف إذا كان في عبارات اليونسية والفلاسفة، وتلك الكُفْرِيَّات التي تُغْمِي القلوب؟]^(٢٥). والله قد صرنا ضُحَكَةً في الوجود، فألى كم تنبش دقائق الكُفْرِيَّات الفلسفية، لنرد عليها بعقولنا؟ يا رجل، قد بَلَّغْتَ سمومَ الفلسفة ومصنَّفَاتِهِم مراتٍ، وبكثرة استعمال السموم يُدمن عليها الجسمُ، وتكمن، والله، في البدن^(٢٦). يا خيبةَ مَن اتبعك؛ فإنه مُعَرَّضٌ للزندقة والانحلال، ولا سيما إذا كان قليل العلم والدين باطوليًّا شهوانيًّا، لكنه ينفَعك ويجاهد عنك بيده ولسانه، وفي الباطن عدوُّ لك بحاله وقلبه، فهل معظمُ أتباعك إلا قعيذٌ مربوطٌ خفيفُ العقل؟ أو عاميٌّ كدَّابِّ بليدِ الدَّهْنِ؟ أو غريبٌ واجمٌ قويٌّ المَكْرُ؟ أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل»^(٢٧).

ويؤكد الذهبي أن هذا كله وأكثر ليس إلا نقدًا بنَاءً يسوقه صديقٌ محبٌّ، لا يريد به إلا الخير لابن تيمية:

(٢٤) السابق، ص ٣٢.

(٢٥) السابق، ص ٣٢، ٣٣.

(٢٦) السابق، ص ٣٣.

(٢٧) السابق.

في هذا المقام، فمن الصعب الاعتراضُ على الوصف الذي أسبغه على ابن تيمية: لتكراره المطرد على ألسنة أصدقاء الشيخ وخصومه جميعًا.

بيد أن الإقرار لابن تيمية بجملةٍ من الفضائل لا يعني تبرئته من كل نقيصة: فبين عبارات المدح والثناء يمكن العثورُ على مثليةٍ وحيدةٍ أُكْرِت على الشيخ. وتشتمل الرسالةُ المعنونةُ بـ«النصيحة الذهبية لابن تيمية» على أصرح نقدٍ وُجِّه إلى شخصه^(٢٨)، ومن الجلي أنها من تصنيف المؤرِّخ والمحدِّث الشهير الذهبي، على الرغم من أن نسبتها إليه، كما سنرى، لم تزل موضعَ خلاف. وتتظم الرسالةُ التي صيغت في شكل نصيحة هجوًا عنيفًا على موقف ابن تيمية تُجاه أقرانه من العلماء، وتنتقد على وجه الخصوص ما عُرِفَ به من كِبَرٍ، وعنادٍ، وتعصُّب، وضيق عَظَن، وافتقار إلى الكياسة والمداراة. ويرى الذهبيُّ أن هذا المزيج من الخصال قد أعمى ابن تيمية عن أخطائه، وحجب عنه أيضًا فضائلَ خصومه، وأفضى به إلى أن يحيط نفسه بطائفة من المتملِّقين. وحسبنا أن نورد بعض المقتطفات حتى نوضِّح طبيعة هذه الوثيقة وتبيِّن لهجتها:

«طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتبَّ لمن شغلته عيوبُ الناس عن عيبه. إلى كم ترى القَدَاة في عين أخيك، وتنسى الجِدْع في عينك. إلى كم

(٢٨) في بيان زغل العلم، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، دمشق، (القدس)، ١٣٤٨هـ/١٩٢٨م-١٩٢٩م، ص ٣١-٣٤.

العلماء، وهما: يوسف كوكان العمري ومحمد عطاء الله حنيف الفوجياني، زعما أنه لا يمكن أن يكون قد قاله، واحتجاً بأنه لا يتسق مع ما أعرب عنه من تقدير شديد لابن تيمية في غير موضع، ونَبَّها على خُلُو المصادر المعاصرة من أي إشارة إلى مثل هذه الرسالة [«النصيحة الذهبية»]^(٣٠). ولا يمكن الاقتناع بأي من هذين الاعتراضين. فعلى الرغم من أن كُتَّاب التراجم المعاصرين لم يُدرِّجوا هذه الرسالة ضمن مؤلَّفات الذهبي، فإن السخاوي (٨٥٣هـ/١٤٤٩م)، يروي فيما كتبه بعد ذلك بمائة عام أنه طالع هذه الرسالة التي كتبها الذهبي^(٣١). زد على هذا أن السخاوي نقل عن رسالة أخرى، أمسك عن ذكر عنوانها، ساق فيها الذهبي مزيداً من النقد لابن تيمية؛ حيث قال:

«وقد رأيتُ له عقيدةً مجيدةً، ورسالةً كتبها لابن تيمية، هي لدفع نسبته لمزيد تعصبه مفيدة، وقال مرة فيه- مع حلفه بأنه» ما رمقت عينه أوسع منه علماً، ولا أقوى ذكاءً، مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام

«ما أذكُرُ أنّك تذكر الموت، بل تزدرى بمن يذكر الموت، فما أظنك تُقبِلُ على قولي، ولا تُصغي إلي وعظي، بل لك همّة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلدات، وتقطع لي أذنان الكلام، ولا تزال تنتصر حتى أقول لك: والبتّة سكتُ. فإذا كان ذلك هو حالك عندي، وأنا الشفوق المَجِبُّ الوادُّ، فكيف يكون حالك عند أعدائك؟! وأعداؤك، والله، فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، [كما أن أوليائك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلّة وِعُورٌ وبقر]. وقد رضيتُ منك أن تُسبِّني علانيةً، وتنتفع بمقالتي سرّاً»^(٣٢).

وهذه كُلهَا عباراتٌ شديدةٌ ترسم صورة لابن تيمية أقلّ مداراةً من الصورة التي رسمها له ابن بطوطة. زد على هذا أن الحُكْم الذي قضى به الذهبي أشدُّ وطأةً من الحُكْم الذي أطلقه ابن بطوطة؛ ذلك أنه اشتهر بأنه أحدُ الشافعية الذين ينظرون إلى الأشاعرة بعين الاحتقار، وأنه، تَبَّعاً لما قرره [تاج الدين] السبكي، «كان شديد الميل إلى آراء الحنابلة»، وهو الميل الذي أفضى به إلى لزوم صحبة ابن تيمية وقبول إرشاده^(٣٣).

والحق أن الحُكْم الذي قضى به الذهبي على ابن تيمية كان من القسوة بحيث إن اثنين من

(٢٨) السابق، ص ٣٤.

(٢٩) طبقات الشافعية الكبرى، الجزء الخامس، القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، بدون تاريخ، ص ٢١٧. وراجع أيضاً: صلاح الدين المنجد، سيرة جديدة للذهبي، في: سير أعلام النبلاء، الجزء الأول، القاهرة: معهد المخطوطات، بدون تاريخ، ص ١٩.

(٣٠) العمري، الإمام ابن تيمية، لاهور: اسلامي پبلشنز، أميني، ١٩٦٠م، ص ٦١٢-٦١٨؛ محمد أبو زهرة، حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ترجمه إلى الأوردية؛ السيد رئيس أحمد الجعفري [الندوي]، وأضاف إليه، محمد عطاء الله حنيف الفوجياني، لاهور: المكتبة السلفية، ١٩٦١م، ص ٧٧٦-٧٨١. والحق أنني أدين بالفضل في هذه الإحالات المرجعية إلى أطروحة حسن قاسم مراد (Milhan)، ص ١١٨، الحاشية رقم ٨٦، وللدكتور ساجدي علوي، و س. س. ك. الحسيني؛ لقيامهما بترجمة هذه الإحالات من الأوردية.

(٣١) الإعلان بالتبويح لمن ذم التاريخ، بغداد: مكتبة العيني، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م، وراجع أيضاً: ترجمة فرانز روزنتال لهذا الكتاب (Franz Rosenthal) في كتابه: A History of Muslim Historiography (E. J. Brill, Leiden, ١٩٦٨, p. ٣٧٦).

الذهبي تُجاه ابن تيمية هو القولُ بأنها كانت مشاعرٍ متضاربةً؛ فثناؤه على الشيخ كان أمراً مألوماً في مقام المدح والتقريض، ولكنه اقترب بالنقد دائماً. وكانت ملاحظاتُ الذهبي- خلافاً لملاحظات ابن بطوطة- تستند إلى أساس متين يقوم على المعرفة المباشرة بالشيخ، وهي المعرفة التي نشأت عن اهتماماتهما المشتركة، وما ترتّب على ذلك من اتصال بينهما في دمشق؛ فكلاهما كان من علماء الحديث، وكلاهما كان يُزري بالفلسفة ويُبيءُ الظن بعلم الكلام، وكلاهما كان يحاول صياغة الإسلام صياغةً مدرسيةً (in scholastic terms). والحق أن جُلَّ كتابات الذهبي تتصل، على نحو من الأنحاء، بعلم الحديث، أو علم الرجال- وهو العلم الذي يتغيّأ التحقق من موثوقية رواية الحديث- أو علم التاريخ الذي كانت جذورُهُ ومنهجياتُهُ نفساًها تقع في صميم حقل الحديث. وأما مصنّفاتُ ابن تيمية فكانت أدخل في باب التنظير من حيث مضمونها ومنهجها، وإن تجلّت عنايتهُ بالحديث في هذا العدد الوافر من الكتب التي ألّفها في الفقه وأصوله، وفي اعتماده الشديد على الحديث بوصفه مصدرًا لتوثيق آرائه التي أعرب عنها في مؤلفاته الأخرى. وقد تقلّد كلا الرجلين بعض وظائف التدريس؛ حيث شغلا مشيخة الحديث في عدد من المؤسسات [العلمية] بدمشق؛ فتولّى ابنُ تيمية مشيخة الحديث بدار الحديث السكرية، والمدرسة الحنبلية^(٣٥)، وتولّى الذهبي مشيخة

في الحق بكل مُفكّن]-: إنه تعب في وزنه وتفتيشه سنين متطاولة، فما وجد آخره بين المصريين والشاميين، ومقتته نفوسهم بسببه، وازدروا به، وكذبوه، بل كفروه، إلا الكبر والعجب والدعاوى، وفرط الغرام في رياسة المشيخة، والازدراء بالكبار، ومحبة الظهور، [بحيث قام عليه ناسٌ ليسوا بأورع منه ولا أعلم ولا أزهّد، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم، ولكن ما سلّطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم، بل بذنوبه، وما دفع الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون]^(٣٦).

ومصدرُ هذه الفقرة هو «بيان زغل العلم»^(٣٣) للذهبي، وهي الفقرة التي عدّها الفوجياني أيضاً منحولةً على الذهبي؛ لنفس الأسباب المذكورة آنفاً^(٣٤). بيد أن الحقيقة هي أن الآراء التي اشتملت عليها هاتان الرسالتان تعبّر بصدق عن رأي الذهبي في ابن تيمية، وهو الرأي الذي جرى الإعرابُ عنه في مصادر أخرى لا نزاع في موثوقيتها، [أي: في صحة نسبتها إلى أصحابها]. وعلى العموم، فإن خير سبيل، إن لم يكن السبيل الوحيد، لوصف مشاعر

(٣٣) السابق. [يمكن مراجعة هذا النص في: فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ص ٥٤. وقد ذكر محمد زاهد الكوثري، ناشر كتاب «بيان زغل العلم»، أن «النصيحة الذهبية» هي نفس الرسالة التي أشار إليها السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ». (المترجم).]

(٣٣) راجع ما تقدم في هذه المقالة.

(٣٤) حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٧٧٦-٧٨١.

قليل الشَّيب، شعْرُهُ إلى شحمة أذنيه،
وكأن عينيه لسانان ناطقان، رَبْعَةٌ من
الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جَهْوَرِيٌّ
الصوت فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه
حدَّةٌ، لكنه يقهرها بالحلم. ولم أر مثله
في ابتهاله واستغاثته، وكثرة توجهه.
وأنا لا أعتقد فيه عصمةً، بل أنا مخالفٌ
له في مسائل أصلية وفرعية، فإنه كان
مع سعة علمه وفرط شجاعته وسيلان
ذهنه وتعظيمه لحرمان الدين، بشرًا
من البشر»^(٣٨).

وثمة تعليقات أخرى متناثرة في مختلف
المصادر يمكن عزوؤها إلى الذهبي، وهي
تكشف عن مزيد من مثالب ابن تيمية؛ إذ يروي
الصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) عن الذهبي أن ابن
تيمية كان مزهواً بنفسه جريئاً قليل المدارة^(٣٩).
وكذلك ينقل ابن رجب (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٣م)، كاتب
التراجم الحنبلي، عن الذهبي، مُكْرِّراً الصفة
الأخيرة مُضِيفاً إليها أن فيه [أي: ابن تيمية]
«عدم تودة»، وأن له حدَّةً [تعتريه في البحث].
حتى كأنه «ليثٌ حريث»^(٤٠). ويروي ابن رجب
أيضاً عن المصدر نفسه [أي: الذهبي] أن ابن
تيمية كان متقلب المزاج، حتى إنه «قد يعظم
جليسته مرةً، ويهينُهُ في المحاورة مراتٍ»^(٤١).

(٣٨) الدرر الكامنة، ١/١٦١. وراجع أيضاً: ترجمة حسن قاسم
مراد لهذا النص، في: "Miḥān", p. ٣٤.

(٣٩) الوافي بالوفيات، الجزء السادس، تحقيق: إحسان
عباس، فيسبادن (Franz Steiner Verlag)، ١٩٦٩م، ص ١٨.

(٤٠) الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي،
الجزء الثاني، القاهرة: مكتبة السنة المحمدية، ١٩٥٣م، ص
٣٩٥.

(٤١) السابق.

الحديث في المدرسة النفيسية والمدرسة
الفاضلية، وكذلك في دار الحديث السكرية خلُقاً
لابن تيمية^(٣٦). وكان الذهبي أخيراً منتسباً إلى
طائفة من الشافعية في دمشق ذكر السبكي
أنهم تأثروا بابن تيمية تأثراً أضرب بهم؛ حيث
قال: «واعلم أن هذه الرُّفقة، أعني: المزي
والذهبي والبرزالي وكثيراً من أتباعهم،
أضرب بهم أبو العباس بن تيمية إضراراً
بيّنًا، وحمّاهم من عظام الأمور أمراً
ليس هيّناً، وجرّهم إلى ما كان التباعدُ
عنه أولى بهم، [وأوقفهم في دكاك
من نار، المرجو من الله أن يتجاوزها لهم
والأصحابهم]»^(٣٧). بيد أنه على الرغم مما كان
بينهما من صحبة واهتماماتٍ مشتركة واتفق
على بعض المسائل، فمن الواضح أن إعجاب
الذهبي بابن تيمية كان ينال منه دائماً كثيرٌ من
الهواجس. ويتجلّى هذا التضارب، الذي كان
الذهبي على وعي به، في أوضح صوره في هذه
العبارة اللافتة للنظر التي تعكس هذا الموقف
الذي حفظه ابن حجر على أكمل وجه: إذ يقول
[نقلًا عن الذهبي]:

«وَمَنْ خالطه وعرفه فقد ينسبني إلى
التقصير فيه، وَمَنْ نابذه وخالفه فقد
ينسبني إلى التغالي فيه، وقد أُوذيتُ
من الفريقين من أصحابه وأصداده.
وكان أبيض، أسودَ الرأس واللحية،

(٣٦) عبد القادر النقيمي، الدارس في تاريخ المدارس، الجزء
الأول، دمشق: المجمع العلمي العربي، ١٩٨٤م، ص ٧٩. وانظر
أيضاً:

Moh. Ben Cheneb, "al-Dhahabi", EI2, II, 214.

(٣٧) طبقات الشافعية، ٦/٢٥٤.

المصادر الأخرى المستقلة، وهي تؤيد الحُكْم الذي انتهى إليه الذهبيُّ.

وتتألّف هذه الأخبارُ من الحكايات الواردة في كتب التراجم والمرويات التي اشتملت عليها كتبُ الحوليات وصوّرت لنا الأنشطة العامة لابن تيمية. وعلى الرغم من أن كُتّاب التراجم المسلمين كانوا قلّمًا يذكرون أخبارًا تتعلّق بطفولة من يترجمون له إلا إذا كانت تُبْرِزُ بعض الأمارات الدالة على منقبة من المناقب أو منجزًا من المنجزات غير المألوفة في هذه السنّ الباكِرة، فقد حفظ لنا الصفديُّ إحدى الحكايات عن طفولة ابن تيمية، حين كان يدرس مع أبناء أسرة أخرى من الأسر الحنبلية البارزة في دمشق، وتُظهِرُ هذه الحكاية -عن غير قصدٍ- أنّ المزاجَ الحادّ الذي جُبِلَ عليه ابنُ تيمية، وهذا الصّلف الذي لاحظه الذهبيُّ كان أمرًا جليًّا عُرِفَ به منذ نعومة أظفاره:

«[وَحَكَى لِي عَنْهُ الشَّيْخُ ابْنُ قِيَمِ الجوزية، قال:] كان صغيرًا عند بني المنبجّ، فبحث معهم، فادعوا شيئًا أنكره، فأحضروا النقل، فلما وقف عليه ألقى المجلدَ من يده غيظًا، فقالوا له: أنت جريءٌ! ترمي المجلد من يدك وهو كتابٌ عِلْمٍ! فقال سريعًا: أيُّما خيرٌ أنا أو موسى؟ فقالوا: موسى، فقال: أيُّما خيرٌ هذا الكتابُ أو ألواحُ الجواهر التي كان فيها العشر كلمات؟ قالوا: الألواح، فقال: إن موسى لما غضب ألقى الألواح

وتتسق هذه الخصالُ كُلُّها مع تقدير أعم وأكثر تعاطفًا ساقه الذهبيُّ لابن تيمية، وهو تقديرٌ يتيح لنا، فيما يبدو لي، مفتاحًا لفهم ما نعرفه عن الشيخ؛ حيث كان ابنُ تيمية، تَبَعًا للذهبي، منقطعًا للعُلْمِ تمام الانقطاع، «فارعًا عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذةَ لَهُ في غير نشر العلم وتدوينه، والعمل بمقتضاه»^(٤٢). ومن المهم في هذا الصدد أن نذكر أنه لم يتزوج قطّ وَلَا تَسرّى، ولا ريب أنه أمرٌ شديدُ الغرابة بالنسبة لشخص مسلم^(٤٣). وكان متى اكتسب شيئًا من المال أنفقه؛ ولهذا فقد تعيّن على إخوته أن يقوموا بشئونه^(٤٤).

وكان الذهبيُّ هو مصدرُ هذه الانطباعات كلها، فهل يسعنا التأكّد من أن رأيه في ابن تيمية لم تتحرف به العواطفُ أو المشاعرُ عن جادة الإنصاف؟ الحق أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن نقرّر ذلك في ظل ما نفتقر إليه من معلومات عن شخصية الذهبي، وإن كانت لهجتهُ في الحديث توحى بأنه كان موضوعيًا، بعيدًا عن الحسد، وأنه ضاق ذرعًا بابن تيمية، وإن لم يعدل به هذا الضيقُ إلى الحقد عليه. وبالإضافة إلى ذلك، هناك بعضُ الأخبار التي يمكن الوقوفُ عليها في طائفة من

(٤٢) السابق، ص ٣٩٠. وبطالعنا هذا الرأي نفسهُ في كتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي، ١٦٧، فيما عدا لفظة «الجماع»، حيث يستبدل بها الصفديُّ قولَهُ: «الراحة الدنيوية».

(٤٣) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ٣٩٥/٢؛ وانظر أيضًا: ابن الوردي، تاريخه، الجزء الثاني، النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٩م، ص ٤١٢.

(٤٤) السابق، [ونص عبارة ابن رجب، نقلًا عن الذهبي: «وأخوه يقوم بمصالحه... وما رأيتهُ في العالم أكرم منه، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم، لا يذكره، ولا يدور في ذهنه...» (المترجم)].

من يده»^(٤٥).

وتخريبه لبعض الآثار المقدسة التي تُسبِّت إلى النبي ﷺ^(٤٥)، وشجاعته في التنديد بما كان يأتيه دراويشُ الرفاعية من ألوان الشعبة^(٤٥)، وسعيه في إطلاق سراح صاحبه - الميزي - من السجن^(٤٥)، ورفضه غير مرة الإذعان للسلطة المملوكية^(٤٥)، ووشايته بالأقباط على نحو يفتقر إلى الكياسة والمداراة، في حين رأى غيره من العلماء أن الحكمة في هذا الموطن تُوجبُ اللياذ بالصمت^(٤٥).

وكان ابنُ تيمية صادقاً في انقطاعه للمبادئ الدينية، لا يركن إلى حياة البطالة والفراغ، حتى إن ابن عبد الهادي يروي عنه أنه حوّل السجن الذي اعتُقِلَ به في مصر إلى معهد للدراسة الدينية والعبادة، وحوّل المحبوسين من الاشتغال بالشطرنج والنرد إلى ملازمة الصلاة^(٤٥). وحتى حين كان الشيخُ يسير في شوارع القاهرة في طريقه إلى ما

(50) Ibid., p. 133; Murād, "Miḥan", p. 80.

(51) Laoušt, "Biographie", pp. 135-36, and Essai, pp. 126-27; Murād, "Miḥan", pp. 80-82.

(52) Laoušt, "Biographie", p. 137; Murād, "Miḥan", p. 89.

(53) Laoušt, "Biographie", pp. ١٥٣, ٤١-١٣٩. and Essai, pp. ١٥٣, ٩٤-٩٥, ٩٢. Murād, "Miḥan", pp. ٤٥-٤٤, ٣٤.

(54) Laoušt, Essai, pp. 141-42; Murād, "Miḥan", pp. 101-02.

(٥٥) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية**، ص ٢٨٨. [ونصَّ عبارة ابن عبد الهادي: «... وخيَس بسجن الحاكم بحارة الديلم ... ولما دخل الحبس وجد المحابيس مشغولين بأنواع من اللعب، يلتهون بها عما هم فيه، كالشطرنج والنرد، ونحو ذلك من تضييع الصلوات. فأنكر الشيخُ عليهم أشدَّ الإنكار، وأمرهم بملازمة الصلاة، والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة، والتسبيح والاستغفار، والدعاء، وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه، ورغبهم في أعمال الخير، وحضهم على ذلك، حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا والربط، والخوانق والمدارس، وصار خلقٌ من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه، حتى كان السجن يمتلئ منهم».] (المترجم).

وثمة حكايةٌ أخرى يُورِدُها الصفديُّ تؤكد ما لاحظته الذهبيُّ من أن ابن تيمية كان لا يكثرُ بشئون الدنيا. وتروي هذه الحكايةُ أنه أكل قرعاً، عافته أمُّه لشدة مرارته، دون أن يبدى امتعاضاً^(٤٦). ولعل أبلغ ما يدُلُّنا على استغراقه الكامل في أمر الدِّين مجاهرتهُ بأنه لا يبالي بصنوف العقوبة المختلفة التي يمكن أن يتعرَّض لها؛ حيث قال:

«ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رختُ فهي معي، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»^(٤٧).

وتتيح لنا هذه المرويات التي تصوِّر لنا الأنشطة العامة لابن تيمية أدلةً وافرةً تُثبِتُ ما أبداه الذهبيُّ من ملاحظاتٍ أخرى، ولا سيما تلك الملاحظات المتعلقة بما عُرفَ به الشيخُ من زهو وخُلاء، واندفاع، ومعاندة، وتعصب، وعزوف عن المداراة. ومن اليسير الوقوفُ على بعض الأمثلة التي تصوِّر لنا مثل هذه الخصال في المصادر الثانوية، وخسبنا أن نستحضر في هذا المقام بعضَ الأحداث التي مرَّ بها؛ كجراته المتهورة في مواجهة حُكَّام المغول^(٤٨)، وجسارته في دعوة السلطان المملوكي إلى جهادهم^(٤٩).

(٤٥) الوافي بالوفيات، ١٧/٧.

(٤٦) السابق، ص ١٨.

(٤٧) ابن رجب، **الذيل على طبقات الحنابلة**، ٤٠٢/٢.

(48) Laoušt, "La Biographie d'Ibn Taimīya d'après Ibn Kaṭīr", Bulletin d'Études Orientales, IX (1942-45), 123-24.

(49) Ibid., p. 127.

تماماً من الأدلة التي تعضد هذا القول، ومن هذه المصادر ما كتبه الذهبي نفسه. بيد أنه من الواضح أن ابن بطوطة لم يقصد إلى شيء من ذلك، وعلينا أن نتذكر في هذا المقام أن عبارته الفجة «إلا أن في عقله شيئاً» قد حُفَّت من عُلوها عباراتٍ أخرى بدت أكثر إسماعاً في وصف ابن تيمية: حيث وصفه بأنه «كبير الشأن، يتكلم في الفنون وكان أهل دمشق يُعظّمونه أشدَّ التعظيم»^(٥٧).

وبعبارة أخرى يمكن القول: إن حُكم ابن بطوطة لم يكن ينطوي على إدانةٍ محضةٍ لابن تيمية، وإنما شابه ثناءً عليه، حتى لو كان في استطاعتنا أن نستنتج أنه كان مسوقاً بشعور الحسد. وأعتقد أن ابن بطوطة، بالنظر إلى السياق الذي وردت فيه هذه المقولة المُهينة، لم يكن يقصد إلا أن ابن تيمية كان يفتقر إلى ما يكفي من الحلم وضبط النفس حتى يصدر في سلوكه على نحو يعزز مصلحته الشخصية، بحيث يدع ما دأب عليه بين الفينة والفينة من إثارة الفتن والقلقل. فإذا كان هذا التفسير صحيحاً^(٥٨)، فمن الصعب أن نذكر صحة المنحى الذي اتخذه ابن بطوطة في وصف [شخصية] ابن تيمية: نظراً لأن هذا الوصف قد أجدّه الذهبي في غير موضع. ولئن كان وصفاً قاسياً، بل ربما بلغ حدَّ التناول والوقاحة، فإنه لا يخلو من بعض الحق.

وبعد، فكيف أثّرت شخصية ابن تيمية على

(57) Defrémery and Sanguinetti, Voyages, I, 215.

(58) يمكن القول بعبارة أكثر تحديداً: إن ابن بطوطة ربما كان يعني أنه على الرغم من رسوخ قدم ابن تيمية في العلوم كلها، فإن الأفكار التي عبّر عنها بدت غير منطقية.

كان يعده أصحابه موثقاً محققاً، لم يستطع أن يمنع نفسه من التوقف قليلاً للإطاحة برقعة الشطرنج، حين رأى قوماً يلعبون به على مسطبة بعض حوانيت الحدادين^(٥٩).

وأحسب أن من سيتوقّف على قراءة هذه المصادر سيتبيّن له أن رأي الذهبي في ابن تيمية كان له ما يبرّره. وعلى الرغم من أنه كان شيئاً عظيماً وشخصاً ألمعياً تتمثل فضائله الأساسية في الشجاعة والتقوى والإيثار وغزارة العِلْم، فقد كانت له أيضاً نقائصه التي نبّه عليها الذهبي، وتتمثل بالدرجة الأولى في جدّة مزاجه (وإن كان من المؤكد أنه سيطر عليها)، وقلة صبره على ما جُبل عليه البشر من نقص، وتصلبه الشديد؛ فأسمى بفضل هذه الخصال مجتمعةً، سواءً أكانت حسنة أم قبيحةً، شخصاً استثنائياً مغايراً لأقرانه من العلماء الذين كانوا أرقّ منه حاشيةً، ومنهم الذهبي نفسه.

وتظل الأسئلة التي صدّرتنا بها هذه الدراسة قائمةً. ويمكن طرح السؤال الأول منها بصيغة مغايرة على النحو الآتي: هل يُثبت رأي الذهبي في ابن تيمية ما قرره ابن بطوطة بشأنه؟ الحق أنه إذا كان مقصودُ ابن بطوطة أن ابن تيمية مجنونٌ، نوع جنون، أي: مسّ الجن، فينبغي علينا اطراحُ قوله بالكلية؛ إذ تخلو المصادر الأخرى

(٥٩) السابق، ٣٦٩.

[ونص عبارة ابن عبد الهادي: «... فلما خفّ الناسُ خرج يطلب الجامع العتيق، فمرّ في طريقه على قوم يلعبون بالشطرنج، على مسطبة بعض حوانيت الحدادين، فتقضى الرقعة وقلبها، فُبهِت الذي يلعب بها والناسُ من فعله ذلك، ثم مشى قاصداً للجامع والناسُ يقولون: هنا يقتلونه، الساعة يقتلونه، فلما وصل إلى الجامع، قيل: الساعة يُغلق الجامع عليه وعلى أصحابه ويقتلون». (المترجم)].

مداراة خصومه أو حتى رعاية أصدقائه أسهم بصورة جوهرية في المصاعب التي تعرّض لها من قبل المؤسسة السياسية والدينية المملوكية.

ومن جهة أخرى، يبدو من المحتمل أن الخصال نفستّها التي ولّدت في نفوس أعدائه شعور الكراهية نحوه وأثارت استنكار الذهبي هي نفسها التي أكسبته إعجاب أنصاره. وسوف نغض الطرف في هذا المقام عن مضمون معتقداته مرة أخرى، مفترضين أنها كانت، ولا بُدَّ، أقلَّ أهميةً في نظر مُحبيّه من «العلماء والصُلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهارًا بلسانه وقلمه»^(٦١)، وإن كانت يبقين عاملاً مهمًّا في نظر أقرانه من العلماء. فلا ريب أن مثل هؤلاء المحبّين قد استولى عليهم الإعجاب بشجاعته وجرأته، وهي الخصال التي كانت، فيما زُوِي لنا، مضرب المثل^(٦٢).

والواقع أن شهرة ابن تيمية بدأت، فيما نُقِل إلينا، حين أظهر هذه الخصال في لقاء قيل: إنه جمع بينه وبين السلطان غازان، إيلخان الدولة المغولية^(٦٣). زد على هذا أنه من الصعب أن نعتقد أن خصاله التي تجسّدت في شدة ثباته على ما كان يؤمن به من مبادئ، وصراحته وحماسته المتقدمة، ومعارضته

سيرته المتقلّبة من حيث كونه مُصليحًا؟ كان ذلك بطريقتين على الأقل: إحداهما: ما ألمح إليه الذهبي، كما رأينا في «النصيحة الذهبية» و«بيان زغل العلم»، من أن ابن تيمية هو الذي جرّ على نفسه كلّ هذه المشكلات، أي أنه لو كان قد ركن إلى شيء يسير من المداراة وضبط النفس في علاقاته مع زملائه من العلماء، ومع سلطة الدولة المملوكية، لجنّب نفسه وغيره كثيرًا من المحن التي تسبب فيها، ليس هذا فحسب، بل إنه كان سيُوفَّق إلى نشر آرائه بقدر أكبر من النجاح. وقد تأكّد هذا الرأي في موضع آخر: [حيث قال ابن حجر نقلًا عن الذهبي]: «وكانت تعتريه جدّة في البحث وغضبٌ وشظف للخصم تزرع له عداوةً في النفوس، وإلا لو لطف خصومَه، لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بشغوفه، مُقرُّون بندور خطأه»^(٥٩).

ولا يعني ذلك أن ابن تيمية كان لا ينفك عن معاداة الآخرين واتخاذ مواقف متشددة تُجاههم بصورة دائمة؛ فالحق أنه، تبعًا لما يرويه ابنُ عبد الهادي، رفض مطاوعة الملك الناصر في حُطته الرامية إلى إعدام خصومهما المشتركين، بل إنه نصحه بالصفح عنهم، وهذا دليلٌ كاف على إثبات تسامحه في بعض الأحيان^(٦٠). ومع ذلك، يبدو جليًّا أن امتناعه عن

(٥٩) ابن حجر (نقلًا عن الذهبي)، الدرر الكامنة، ٦١١/١.

(٦٠) ابن عبد الهادي، العقود الدرية، ص ٢٨٢، ٢٨٣، وانظر أيضًا:

(٦١) ابن عبد الهادي، العقود الدرية، ص: ١١٨.

(٦٢) ابن رجب، الذيل على طبقات الصائبة، ٣٩٥/٢.

(٦٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٦٤/١.

Laoufi, Essai, pp. 140-141.

بأمه، دع عنك نزعتَه المحافظةَ فيما كان يدين به من آراء. بيد أنه يلوح لي أن هذا المسار في الدرس سيترك على الحدس والتخمين بدرجة كبيرة؛ نظرًا لقلّة ما تحويه المصادرُ من معلومات تدعم هذا التحليل النفسي. وثمة مقارنةً أخرى أكثر جدوى تنعطف بنا إلى كتابات ابن تيمية: إذ ربما يسوغ لنا الآن أن نُفكِّشَ في هذه الكتابات عن آثار تلك الخصال التي وقف عليها الذهبيُّ في شخصية ابن تيمية؛ بحسبان ذلك وسيلةً لاختبار أحكام الذهبي من جهة، وفهم الطابع الذي وسم فكر ابن تيمية من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر، فإننا مدينون بالفضل للذهبي في المقام الأول؛ لأنه جعل ابن تيمية واحدًا من المفكرين المسلمين القلائل خلال العصور الوسطى الذين يتحدثون إلينا الآن لا بوصفهم أصواتًا مجردةً غير متجسّدة، ولكن بوصفهم أشخاصًا واقعيين أشد الواقعية موسومين بالطابع البشري في أجلى صورته. فإذا أردنا أن نفهم طبيعة «الظاهرة التيمية»، وأعني بها إدراك الأثر الكامل الذي تركته أنشطة ابن تيمية ومؤلفاته على تطور الإسلام، فلا ريب أنه يجب علينا أن نبدأ بطبيعة الرجل نفسه.

دونالد ب. لتل مونتريال

للسلطة، واستخفافه بخصومه، وإن أثارت قدرًا كبيرًا من استياء الذهبي، لم تكن مثار إعجاب كثير من أنصاره الذين جنحوا إلى تأييده استنادًا إلى معتقداته. فلا بُدَّ أن الإعجاب بهذه الخصال كان عاملاً مهمًّا يفسّر الدعم الجماهيري الذي أوماً إليه ابن بطوطة، وما اشتهر به من تأثير لدى مسؤولي دولة المماليك على اختلافهم^(٦٤). وبعبارة أخرى، أعتقد أن ابن تيمية لو كان قد اتبع نصيحة الذهبي واهتدى في أخلاقه وتصرفاته بالنمط السائد بين أقرانه من العلماء، أي أنه لو كان قد تعاون مع زملائه وأزر السلطنة المملوكية، وخفف نبرة دعوته وحدّ من غلواء سلوكه، من أجل تحاشي «لفت الأنظار إليه»، لتقلص تأثيره على المجتمع المملوكي بدرجة كبيرة.

وفي الختام، هل تشتمل المصادرُ على ما يكفي من المواد والأخبار التي تكفل النهوض بتحليل نفسي معقول [لشخصية ابن تيمية]؟ مبلغٌ علمي أن الإجابة يجب أن تكون بالنفي، على الرغم من وفرة الأدلة والقرائن التي تثير فضول المؤرّخ المهتم بالمنازع النفسية، فمن ذلك مثلاً: اضطراب طفولة ابن تيمية بأثر الفرار من المغول بالضرورة، وجدّة مزاجه التي يرجع تاريخها إلى طفولته، واستغراقه الذاتي وقلته مداراته، وتحديه للسلطة، وإيثاره للعزوبة، وبرّه

(٦٤) فمن ذلك مثلاً: تأثيره على والي الشام الأمير أقوش الأفرم (٧١٦هـ/١٣١٦م)، والأمير سلا، نائب السلطنة في مصر (٧١٠هـ/١٣١٠م)، وشيخ العريان في الشام مهني بن عيسى (٧٣٥هـ/١٢٣٥م)، وتبعًا لهنري لاوست، كان لابن تيمية تأثيرٌ على الملك الناصر نفسه. انظر:

Laouf, "Biographie", pp. 140-42, 146.